على هامش النقد :

القـــاهرة الجديدة

تأليف الأستاذ نجيب محفوظ

للأستاذ سيد قطب

من دلائل « غفلة النقد فى مصر » التى تحدثت عنها فى كلمة سابقة ، أن تمر هذه الرواية القصصية « القاهرة الجديدة » دون أن تثير ضجة أدبية أو ضجة اجتماعية !.

ألأن كاتبها مؤلف شاب ؟ لقد كان « توفيق الحكيم » قبل خمسة عشر عاما مؤلفا شابا عندما أصدر أولى رواياته التمثيلية « أهل الكهف » فتلقاها الدكتور طه حسين ، وأثار حولها فرقعة هائلة . كانت هى مولد « توفيق الحكيم » الأدبى . ولم يمنع كونه فى ذلك الحين شابا من إثارة ضجة حوله ، أبرزت أدبه للناس فانتفعوا به ، كما انتفع هو نفسه لأنه وجد الطريق بعدها مفتوحاً أمامه للنشر والشهرة .

و « القاهرة الجديدة » شأنها شأن « خان الخليلى » للمؤلف نفسه لاتقل أهمية فى عالم الرواية القصصية فى الأدب العربى عن شأن « أهل الكهف » و « شهر زاد » لتوفيق الحكيم فى عالم الرواية التمثيلية .

فماذا حدث ؟

هل صحيح أن الملابسات الشخصية كانت أهم العوامل التى جعلت الدكتور يكشف عما فى « توفيق الحكيم » حينذاك من ذخيرة فنية ... ذلك أن ألقى توفيق بنفسه وبأدبه المغمور إذ ذاك فى أحضان الدكتور قائلا : إنه يضع نفسه وفنه ومستقبله بين يدى « عميد الأدب » وأن نجيب محفوظ وأمثاله من شبان هذه الأيام لايضعون أنفسهم ولا فنهم بين يدى أحد إلا جمهور القراء

أنا شخصياً لا أميل إلى قبول هذا الافتراض ؛ ولكنى أقدر أسبابا أخرى طبيعية :

فقبل خمسة عشر عاماً كانت « أهل الكهف » شيئاً فذا يلفت النظر بقوة . كان توفيق الحكيم يخطو خطوة واسعة جداً بالقياس إلى كل من سبقه فى التمثيلية العربية . حقيقة إنه لم يكن يفتح فصلا جديداً فى كتاب الأدب العربى ، كما قال الدكتور طه حينذاك . فهذا الفصل كان مفتوحاً فى الناحية الشكلية . إنما كان الجديد الذى له قيمة فنية حقيقية فى عمل توفيق الحكيم ، هو الانتفاع بالأساطير فى عمل فنى له قيمة أدبية . مع التقدم الواضح فى طريقة الحوار وسبكه وجريانه .

أما اليوم فعمل من نوع « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » يبدو وليس فيه من البريق مايلفت النظر . فكثيرون كتبوا روايات قصصية ، وروايات تمثيلية ، وأقاصيص ... الخ .

ولكن كان على النقد اليقظ — لولا غفلة النقد فى مصر — أن يكشف أن أعمال « نجيب محفوظ » هى نقطة البدء الحقيقية فى إبداع رواية قصصية عربية أصيلة . فلأول مرة يبدو الطعم المحلى والعطر القومى فى عمل فنى له صفة إنسانية ؛ فى الوقت النعى

الميشر ، حتى خلا رأسه من الفكر ، وقلبه من الحب ، ويده من الشغل ، وصار آلة (تمدد أياماً وتقبض راتباً) ، ولكنها لا تستبق من هذا الراتب شيئاً ، فالكيس أيضاً خال من المال .

إنه لا يشكو الفقر ولا المرض ولا التعب ، ولكنه يشكو البطالة ، وأن قواه معطلة ، وأن عقله صدئ ، وأنه كالجواد الأصيل المصفد بالأغلال الذى لا يستطيع أن يتحرك .

هذا هو الرجل الذى خرج من المحطة يوم الخميس الماضى . إنه مدين بحياته للرسالة ؛ لا لأنها تنشر له وتذيع اسمه ، كلا ، فهذا أمر أبعد له عنده نفع ، بل لأنها هى التى تشعره بأنه حى ، هى التى تجعل له كل أسبوع جديداً يرقبه ويعيش له . إن الأيام عنده السبت والأحد ويوم الرسالة . فاذا انقطع عنها أسبوعاً ، محى من عمره هـذا اليوم الذى يجمّل الأيام ونسى أنه يحيا كما يحيا الناس ، ويأمل فى الحياة أملا .

لقد خرج من باب المحطة إلى البلد الواسع ، ولكنه مايدرى ما يجد فيه ، فالضيق فى النفس لا فى البلد وأعظم المدن للقلب المغلق سجن ، والسجن للقلب المتفتح جنة فيحاء ...

اليوم اشرح قلمه ، وصبّ فيه الحماة ، حتى يجد القراء فى قلبه أدباً حياً ... فإنه لا يخرج الأدب الحىّ قلم ميت ، يمدّه قلب مغلق ...

القاهرة — علي الطنطاوي

لا يهبط مستواه الفني عن المتوسط من الناحية الفنية المطلقة . فهو من هذه الناحية الأخيرة يساوي أعمال توفيق الحكيم في التمثيلية .

أم إنه لابد لنجيب محفوظ وأمثاله أن يلقوا بأنفسهم في أحضان أحد ، ليقدمهم إلى الناس ؟ .

لقد فات الوقت الذي كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للظهور ، والجمهور لم يعد ينتظر هؤلاء الشيوخ ليقرأ ويحكم . فعلى هؤلاء الشيوخ أن يؤدوا واجبهم إذا شاءوا أن تظل الأنظار معلقة بهم كما كانت الحال !.

القاهرة الجديدة ...

هي قصة المجتمع المصري الحديث ، وما يضطرب في كيانه من عوامل ، وما يصطدم في أعماقه من اتجاهات .

قصة الصراع بين الروح والمادة ، بين العقائد الدينية والخلقية والاجتماعية والعلمية ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين الغنى والفقر ، بين الحب والمال ... في مضمار الحياة .

وهي تبدأ في نقطة الارتكاز في الجامعة ، حيث تصطرع الأفكار الناشئة هناك بين طلابها — بفرض أن الجامعة ستكون هي « حقل التجارب والاكتشاف » للأفكار النظرية التي تسيِّر الجيل ... ثم تدفع بشتى الأفكار والنظريات النابتة في هذا الحقل ، إلى مضمار الحياة الواقعية ، وغمار الحياة اليومية ، وتصور صراع النظريات مع الواقع خطوة فخطوة ، تصوره انفعالات نفسية في نفوس إنسانية ، وحوادث ووقائع وتيارات في خضم الحياة .

وصفحة فصفحة نجدنا في صميم الحياة المصرية اليومية . هذه الأفكار المجردة نعرفها ، وهذه الوجوه شهدناها من قبل ؛ وهذه الحوادث ليست غريبة علينا . نعم فيها شيء من القسوة السوداء في بعض المواقف ، ولكنها في عمومها أليفة . تؤلمنا ولا ننكرها ، وتؤذينا أحيانا ، ولكننا نتقبلها !

هنا هو الصدق الفني . فنحن نعيش في الرواية لحظة لحظة . نعيش مصريين ، ونعيش آدميين ، وفي المواقف القاسية ، في مواقف الفضيحة ، حيث تبدو الرذيلة كالحة شوهاء مريرة ، نود لو نحدر أعيننا عنها كيلا نراها ، ولكننا نقبل عليها مضطرين فني

القبح جاذبية ! . إنها الدمامل والبثور في جسم مصر وفي جسم الإنسانية كذلك ، وإذا انفعلنا لها مرة لأننا مصريون ، انفعلنا لها أخرى ، لأننا ناس وإنسانيون .

***

لقد اختار المؤلف من بين طلاب الجامعة أربعة ليمثلوا الأفكار والاتجاهات التي تتصارع في المجتمع الحديث ... !

الإيمان بالدين والخلق والفضيلة عن طريقه ، والاتجاه إليه طلباً للخلاص .

والإيمان بالمجتمع والعدالة الاجتماعية ، والصراع العملي لتحقيق الفضيلة الاجتماعية والشخصية من هذا الطريق .

والإيمان بالذات ، وعبادة المنفعة ، وتسخير المبادئ والمُثل والأفكار جميعاً لخدمة هذا الإله الجديد !

وموقف التفرج الذي يرقب هذا وذاك وذلك لمجرد التسجيل والنظر والمشاهدة ... !

ونستطيع أن نلمح في ثنايا الرواية وفي خاتمتها ميل المؤلف لأن ينتصر للمبادئ على كل حال ، وأن يحقر الإيمان بالذات والتدهور الخلقي والاجتماعي ، والقذارة ، والانحلال .

ولكنه لم يلق خطبة منبرية واحدة في خلال ثمانين ومائة صفحة ولم يفتعل حادثة واحدة افتعالا ....

لي بعض الملاحظات على سياقة بعض الحوادث وشكلها . فقد كان فيها قسوة في مواجهة صاحب الإيمان الثالث بالتجارب التي يحك عليها إيمانه ومبادئه ! قسوة لم تكن الرواية في حاجة إليها لتصل إلى أهدافها ... ولكنها على كل حال بعيدة عن التزوير والافتعال .

فمثلا هذا الشاب الذي أسماه « محجوب عبد الدايم » ، ووصفه في هذه السطور :

« كان صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه ، وفلسفة الحرية كما يفهمها هو ، و « طظ » أصدق شعار لها . هي التحرر من كل شيء ، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ ، من التراث الاجتماعي عامة ! وهو القائل لنفسه ساخراً : إن أسرتي لم تورثني شيئاً أسعد به ، فلا يجوز أن أرث منها ما أشقى به ! ، وكان يقول أيضاً : إن أصدق محاولة في الدنيا هي :

الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ ، وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه . فهو يعجب بقول ديكارت : « أنا أفكر فأنا موجود » ويتفق معه على أن النفس أساس الوجود ! ثم يقول بعد ذلك إن نفسه أهم ما في الوجود ! وسعادتها هي كل مايعنيه ؛ ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعاً . ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها ! وإذا كان العلم هو الذي هيأ له التحرر من الأوهام ، فليس يعني هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته ، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه ، فلتكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وإنما غايته في دنياه : اللذة والقوة بأيسر السبل والوسائل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة .

لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه ، ولكن تهيؤه لها نما معه منذ أمد بعيد . فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة · كان والداه طيبين جاهلين ، ولظروفهما الخاصة ، أتم تكوينه في طرق بلدة القناطر ، وكان لداته صبية شطاراً ينطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب . فسب وقذف وسرق ، واعتدى واعتدي عليه ، وتردى إلى الهاوية . ولما انتقل إلى جو جديد — المدرسة — أخذ يدرك أنه كان يحيا حياة قذرة ، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد . ثم وجد نفسه في بيئة جديدة ، طالباً من طلاب العلم بالجامعة ، ورأى حوله شباناً مهذبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية ، ولكنه عثر كذلك على نزعات غريبة ، وآراء لم تدر له بخلد . عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التي يبشر بها علماء النفس والاجتماع للدين والأخلاق والظاهرات الاجتماعية الأخرى ، وسر بها سروراً شيطانياً ، وجمع من مخالبها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعة . لقد كان وغداً ساقطاً مضمحلا ؛ فصار في غمضة عين فيلسوفاً ! المجتمع ساحر قديم . جعل من أشياء فضائل وجعل من أشياء رذائل ، وأنا وقفت على سره وبرعت في سحره ، وسيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل ، وفرك يديه سروراً ، وذكر ماضيه أطيب الذكر ، ورمق مستقبله بعين الاستبشار ، وألقى عن عاتقه شعور الضعة . بيد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن فلسفته فلسفة سرية . يجوز أن يدعو « مأمون رضوان » إلى الإسلام جهاراً ، ويجوز أن يعلن « علي طه » اعتناقه لحرية الفكر والاشتراكية . أما فلسفته هو فينبغي أن تظل سرية — لا احتراماً للرأي العام ، فإن من مبادئها احتقار كل شيء — ولكن لأنها لا تؤتي أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده ! ألا ترى أنه إذا آمن الناس جميعاً بالرذيلة لم يتميز بينهم بما يتيح له التفوق عليهم ؟ لذلك احتفظ بها لنفسه ، ولم يعلن منها إلا ما هو في حكم الموضة كالإلحاد وحرية الفكر ؛ إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة ، فإنه ينفس عن قلبه بالمزاح والسخرية . فبدا للقوم ساخراً ماجناً ، لا شيطاناً مجرماً ، ومضى في سبيله شاباً فقيراً بلا خلق ، يرصد الفرص ويتوثب للانقضاض عليها بجرارة لا تعرف الحدود » .

وهو تصوير معجب لشخصية هذا « النموذج » ، وقد صور زملاءه كذلك — كما صور كل شخصية جاءت في الرواية — ويعجبني فيه ذلك التحليل الصامت لاتجاهات « محجوب عبد الدايم » وزملائه . إنهم كلهم في جامعة واحدة ، يدرسون نظريات واحدة ، ويخضعون لمؤثرات واحدة ، ولكن كلا منهم يختط طريقه في التفكير والحياة بحكم مزاجه ووراثاته ورواسب شعوره ، ويخلق لنفسه فلسفة يعتمد فيها على نفس الأسباب والعلل التي يعتمد عليها الآخرون في تكوين فلسفة مغايرة ! ويصدق سلوكهم فيما بعد هذه القواعد أيضاً .

حقيقة إن محجوب عبد الدايم لم يكن في سلام مع شعوره دائماً وهو يواجه التجارب . فالنظريات شيء — مهما يكن الاقتناع بها ، ومهما تكن بواعثها — والتجارب العملية شيء آخر . ولكنه سار إلى نهاية الشوط ، ولم يقف إلا حين صدمته أنانية أخرى ففضحته ، وحين انفضحت الرذيلة في القصة لم يكن ذلك ليقظة في ضمير المجتمع فهو مجتمع مريض . وإنما كانت غلبة رذيلة على رذيلة ! !

ولكن — كما أشرت من قبل — آخذ على المؤلف قسوة لم تكن لها ضرورة في بعض التجارب التي تواجه هذا الشاب . لقد خيرته الظروف بين أن يبقى بلا وظيفة . أو أن يكون

فى وظيفة مغرية (سكرتير وكيل وزارة ثم مدير مكتب حينما يصبح وزيراً) بثمن ! هو فى ذاته فادح . أن يتزوج بفتاة عبث بها الوكيل الوزير !

وأدى الثمن - حسب فلسفته — وتسلم البضاعة . وكان هذا حسبه ، وكان حسبه أن يقبل الوضع مموهاً من الخارج وهو يدرك حقيقته . ولكن المؤلف جعله يواجه الموقف سافراً بلا تمويه . أيقبل أن يكون زوجاً للفتاة التى هذا موقفها ؟ ... ثم أيقبل أن يكون مقره « جرسونيرة » البك ، وأن يواصل البك مابدأ به وفى يوم معين يعلمه محجوب وعليه أن يغادر البيت فيه ؟!

هذه قسوة لا مبرر لها ولا ضرورة . ومثلها أن تزف إليه (الفتاة) بلا احتفال . وكان من كمال السخرية أن يكون الاحتفال نخما !

وشىء آخر آخذه على الرواية : لم جعل الفتى المؤمن المتدين لا تصطدم نظرياته بواقع الحياة ؟ لقد اصطدم « على طه » صاحب الإيمان بالمجتمع . اصطدم فى قلبه وشعوره . فقد كانت هذه الفتاة التى زفت إلى زميله هى فتاة أحلامه وموضع إيمانه الإجتماعى . ولكنه احتمل الصدمة ومضى يؤمن بالمجتمع الكبير . واصطدم محجوب صدمات شتى وجف لها واضطرب ، ولكنه احتملها فى سبيل ذاته المقدسة ! فلم لم يصطدم أبداً « مأمون رضوان » ؟

هل يريد المؤلف أن يقول : إن إيمانه القوى بالله والدين والرجولة قد أعفاه من الاصطدام ، كلا . إن المجتمع الفاسد المنحل الذى صوره فى مصر — والذى هو مع الأسف واقع — لا بد أن يصطدم به كل صاحب إيمان ، سواء كان إيماناً بالمجتمع أو حتى إيماناً بالحياة !

وبما لاحظ أن التنسيق الفنى يحتم عليه ألا يبرز على المسرح إلا شخصية واحدة رئيسية . ولكن لا . فالرواية القصصية من طبيعتها أن تسمح لأكثر من شخصية بالبروز ، والتنسيق الفنى يتحقق بتنويع درجات البروز .

هذه نقطة من نقط الضعف فى الرواية ، كالنقطة الأولى كذلك .

* * *

وبعد فهناك صفحات رائعة قوية فى تصوير المجتمع المصرى ومافيه من انحلال يشمل الطبقات الارستقراطية ودوائر الحكومة وآثام الفقر والثراء ، وآفات المظاهر والرياء ... الخ ، ولكن يضيق عنها المقام ، وأنا معجل عنها إلى مسألة أخرى لها أهميتها فى وزن الرواية ، وفى وزن كل عمل فنى .

إن هذه الرواية على ما فيها من براعة فى العرض ، ومن قوة فى التصوير — تصوير النماذج وتصوير المجتمع وتصوير المشاعر والانفعالات — هى أصغر من قيمتها الإنسانية — وتبعاً لهذا فى قيمتها الفنية — من سابقتها « خان الخليلى » .

رواية خان الخليلى أضيق فى محيطها الداخلى ولكنها أوسع فى محيطها الخارجى . أضيق فى المجال الذى تعالجه وتضطرب فيه حوادثها . فهى قصة أسرة تفر من الموت بالقنابل فيخترم الموت أجمل زهراتها بلا قنابل ! وقصة قلب إنسانى شاخ قبل الأوان فانطوى على نفسه ورضى بنصيبه ، فإذا الأقدار تخايل له بقطرة ندية فيندى ، ثم تجف هذه القطرة قبل أن تبلغ فاه . يرشفها منه أعز إنسان عليه : أخوه المستهتر السادر . وحينما يجد هذا المستهتر ويقومه الحب العميق ، تخطفه الأقدار فيموت !

ولو استأنت الأقدار لحظة هنا أو هناك ، ولو تغير خيط واحد فى ذلك النوال الأبدى لتغير وجه الحياة .

أما رواية « القاهرة الجديدة » فتعالج جيلا وتصور مجتمعاً . ومجالها مع هذا أضيق من مجال « خان الخليلى ! » .

فى « خان الخليلى » ننتهى من الرواية لنجد أنفسنا أمام رواية الحياة الكبرى : الإنسانية والأقدار ، الضعف الإنسانى والقوى الكونية ، أشواق الناس وأهدافهم أمام الغيب المجهول .

وفى « القاهرة الجديدة » نبدأ وننتهى ، ونحن أمام جيل من الناس ومجتمع قابل للزوال ، فلا تبقى إلا بعض الملامح الإنسانية الخالدة .

المجال هناك أوسع لأنه خالد بخلود الإنسان . والقيمة الإنسانية هناك أكبر ، وهى جزء من القيمة الفنية له أثره فى وزن الرواية ، وراء المهارة الفنية فى العرض والتنسيق والاختيار .

سيد قطب